ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

الثورة الجزائرية في كتابات إدوارد سعيد

The Algerian revolution in the writings of Edward Said

جويدة غانم

قسم الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة البويرة

Samiraphilo_2007@yahoo.fr

تاريخ الإستلام: 13/ 01/ 2022 تاريخ القبول: 29/ 06/ 2022 تاريخ النشر: 30/ 09/ 2022

ملخص:

النظر في كتابات إدوارد سعيد والبحث عن قضايا التحرر يجعلنا نستقصي أهم السرديات الفاعلة في كتاباته فيما يخص موقفه من الثورة الجزائرية،تغدو الابستيمولوجية السردية في نقد الخطاب الاستعماري ضروريا في المنهجية السعيدية الذي أعاد بها هيكلة التواريخ التي رسمها الكتاب الكولونياليين لتشويه هوية صورة العوالم الخارجة عن نطاقه،كان استنطاق إدوارد سعيد لمختلف النصيات الخاصة بالثورة التحريرية الجزائرية منطلقا حاسما في رصد منطلق الثورة الجزائرية من حيث حقيقتها وخطابها وتميزها.

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد ؛ الثورة ؛ الجزائر ؛ المستعمر ؛ التاريخ ؛ المقاومة.

Abstract:

Looking at the writings of (Edward Said) and searching for issues of emancipation leads us to investigate the most important narratives active in his writings regarding his position on the Algerian revolution. Narrative epistemology becomes necessary to criticize the colonial discourse in the Said methodology, with which he restructures the histories drawn by the colonial writers to distort the identity of the worlds outside of Its scope, Edward Said's interrogation of the various texts of the Algerian liberation revolution was a decisive starting point in monitoring the starting point of the Algerian revolution in terms of its truth .

.

Keywords : Edward Saïd ; revolution; Algeria; colonialist ; History ; Resistance

I. مقدمة

تعد الثورة الجزائرية أهم حدث عالمي رافق الحربيين العالميتين مباشرة وتميزت عن هاتين الحربين بالمنطق الفكري و النضالي الذي ميز استراتيجياتها الكبرى في الدفاع و المقاومة،لقد كانت الثقافة الإمبريالية الغربية آنذاك مبنية على الفكر العنصري الذي صنعته العلوم الإنسانية المتطورة في مخابرها البحثية آنذاك وكان لهذا العمل الدور الكبير في محاولة تحويل الشعب الجزائري إلى مجتمع فرنسي مهما كلفت الظروف، ومهما كانت حجم الوسائل والخسائر.

لقد كان لمنطق انطلاق الثورة الجزائرية صدى كبيرا في مناطق العالم،وفي مساحات الكتابات الأجنبية والعربية،حيث بين السرد الثوري وطرق نجاحه في إيصال رسالته للعالم،الأثر الهائل في مساندتها ماديا ومعنويا، وتعدد هذا السند من إفريقيا كفرانز فانون(Frantz Fanon)،الشاعر سيدار سنغور Sedar (Sengor)،إلى روما مع جيلو بونتيكورفو (Gello Pontecorvo)إلى (فلسطين، القاهرة، بيروت ،أميركا) مع إدوارد سعيد الذي اعتبرها بمثابة التاريخ الذي لا يمكن إيجازه في لحظات اندلاعها فقط،و وإنما ثورة ثارت أفكارها على مستوى الوجدان و العقول و السياسات و المجتمعات قاطبة،انطلاقا من خصوصية العمل الثقافي و الركيزة الفكرية النقية التي انطلقت منها في بادئ الأمر، والتي لا يمكن حصرها في مرحلة من المراحل،أو في تغيير حال الجزائر فقط،و إنما مساهمتها كانت أكبر في أنها قاومت نظاما عالميا بأكمله امتدت آثاره إلى هذه اللحظات.

لم تكن دراسة إدوارد سعيد للثورة الجزائرية كسائر الدارسات التاريخية التي خلفت تراكما سرديا كبيرا،وإنما تميزت سردياته التاريخية للجزائر من حيث تفكيكه لطبيعة العمل الثوري الذي انطلق في بادئ مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري،ليثبت مرة أخرى للإمبريالية الفرنسية أن الجزائر دولة قائمة قبل الاحتلال وأعطى لعمل بونتيكورفو القدر الأكبر في توضيح حقيقة معركة الجزائر التي هزمت المواقف الفرنسية التي تقر منذ ذلك الحين وإلى الآن أنها لا تعترف بدولة (الجزائر)،كما فكك الامبريالية الفرنسية من جميع جوانبها الأيديولوجية بقراءة طباقية للوعي الثوري الجزائري ودوره في الإطاحة بأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكنها أن تكون فرسا،لتبقى سردية الثورة والتحرير أقوى من سردية الاستعمار والاحتلال.

يغدو هذا الموضوع من وجهة أكثر تحليلية،يصبو إلى البحث عن المفارقات الثقافية التي رسمت الإمبريالية الفرنسية،من جهة،ويعيد تصوير المنطق الهوياتي الذي لا يزال يصنع المقاومة إما بالقلم أو بالرشاش،فقد ترجمة الامبريالية الجزائريين الأصلانيين إلى متوحشين وجب تهذيبهم وإعادة هيكلتهم بترجمتهم لخدمة الكولونيالية، وقد خصص إدوارد سعيد دراسة الامبريالية الفرنسية كونها تختلف في العنف و الاستدمار على سائر الامبرياليات الكبرى،ما جعله يرفض التواطؤ الثقافي المخاتل للكتاب والروائيين الفرنسيين الذين حاولوا إعادة بناء الأسماء الهوياتية الجزائرية إلى أسماء معدومة تعدم من خلالها الجزائروعلى هذا الأساس يتم التساؤل التالي:

- فمن أي منطلق ناصر به إدوارد سعيد الثورة الجزائرية؟

- على أي أساس خاطب الكولونيالية الفرنسية خصوصا و الكولونيالية الغربية عموما؟

أهداف البحث : يهدف البحث على إبراز حضور الثورة الجزائرية في الدرسات الكولونيالية ومابعدها ،ومعرفة سرودها التحريرية في كتابات إدوارد سعيد ،حيث طرح منهجه الطباقي لمعرفة مدى تعالق الأدب بالتاريخ والتاريخ بالأدب،وبالتالي تنحو الدراسة إلى عقد الصلة بين التاريخ الرسمي وغير الرسمي للكولونيالية وكيفية قراءتها للثورة التحريرية.

المنهج المتبع: يغدو المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج المقارن الذي يكون قريبا من المنهج الطباقي الذي طبقه إدوارد سعيد في دراسات الروايات التحررية والروايات الكولونيالية،حيث تصبح المقارنة مجالاً خصباً لمعرفة واستيعاب النماذج الادراكية للنصوص والأحداث. والقضايا والنتائج من حيث إدراك اللحظة التاريخية للحدث .

القيمة المضافة : تتحدد القيمة الموضوعية للبحث من خلال رصد قيم البحث فيه واستطلاع النظر في سرديات الكولونيالية حول ما كتب عن الثورة الجزائرية باعتبار البحث في التاريخ والذاكرة يستدعي الاطلاع على الدراسات المنظورية لمعرفة الموضوع ناظرا ومنظورا إليه ،لذا فإن القيمة المعرفية المضافة في هذا البحث تمثلت فيما يلي:

- دراسة الثورة الجزائرية في منظور الدراسات الكولونيالية ومابعدها.
- تفكيك وإزاحة اللثام عن منطق التاريخانية التي تستخدم سردياتها في تشكيكها التواريخ الرسمية وإحلال مكانها التاريخ غير الرسمي.

أولا : الثورة الجزائرية في منطق الكتابة الأدبية الكولونيالية:

التحدث عن الثورة الجزائرية وعلاقاتها بإدوارد سعيد يجرنا إلى الحديث عن تلك البنى التي أدت بإدوارد سعيد أن يتحدث عن الثورة الجزائرية في قلب كتاباته الرئيسية،وهي (**السيف والقلم**)، و(**الثقافة والإمبريالية**)،و(**الإستشراق**) و(**المنفى**) ،وقد فتح حديثه من خلال استراتيجيه نقدية خاصة للمنطق الكولونيالي العام الذي رافقته جملة من التخصصات العلمية لتبرير وجوده في المناطق التي أخضعها لمصلحته واحتلاله،وقد ترافق هذا الأمر مع المشروع الثقافي الذي نظرت إليه الكولونيالية الفرنسية في الجزائر،عبر اختلاق الخطابات و القصص ستشهد على هذه النصوص ما قدمه الأدباء،و الأطباء،والمبشرين و الاقتصاديين، وذلك لغرض إعادة ترجمة الجزائريين"من حالة التوحش التي يعيشون فيها إلى حالة التحضر التي يعيشها المستعمر". (دوغلاس، 2009م، ص 126)

كما أن التحدث عن الثورات متعدد ومتشابك في المشاريع التحررية،حيث لا تقرأ فقط من زاوية نضالية حماسية لغرض المساندة القومية أو المساندة الإنسانية،لأن هذا النمط لا يكفي في تفعيل حق الشعوب في تقرير مصيرها ،بل يجب أن تتدعم بتلك القراءة الإبستيمولوجية التي تعمل على تفكيك الخطابات و

الشعارات التي أدت للدخول الاستعمار وأعطت له كل المسوغات في تبرير وجوده في الجزائر وفي سائر الوطن العربي،وفي إفريقيا وجزر المارتنيك،و الكاريبي وغيرها من مناطق الاحتلال.ولكل منطقة مستعمرة من هذه العوالم لها حكاية أو رواية تسردها عنها التجربة الإحتلالية في حد ذاتها ،هذا ما يبين أنه "ربما نشأت العلاقات الإمبريالية في بادئ الأمر عن طريق البنادق و المكر،ولكنه تم الاحتفاظ بها في مرحلتها الإستجوابية من خلال النصية إلى حد كبير على الصعيدين المؤسسي وغير الرسمي،فالكولونيالية هي تشكيل خطاب،وبما أنها عملية خطاب،فإنها تستجوب الأشخاص الكولونياليين من خلال دمجهم في التمثيل". (لومبا، 2013، ص131)

وبالنظر إلى الأرشيف الأدبي الفرنسي،فإن نقد هذا النوع من الاستعمار يستحضر تلك الروايات العظيمة التي أيدتها،وحينما تذكر فرنسا في الجزائر،يمكن أن نتذكر طوعا ألبير كامو،صاحب أكبر الروايات الشهيرة: (La chute،La peste ،L'étranger)حيث حاول كامو في هذه الراويات أن يتحدى منطق الثورة التحررية،بإهانة الشعب الجزائر أحيانا،وأحيانا أخرى لا يكاد يذكرهم،وبدل ذكر الجزائري يستذكر الفرنسي ويدخله التاريخ بينما الجزائري يلقيه في المنفى و الطاعون والغريب ويخرجه من التاريخ.رغم أنه عاش في الجزائر ودرس فيها ،إلا أن الروح الإحتلالية أظهرت نية كامو الرديئة ،ولكنه على حسب رأي سعيد " قرأ ألأحداث والوقائع من خارج سياقه،وخارج تاريخه(...) ورواياته هي تعبيرات في حقيقية الورطة الكولونيالية". (سعيد، 1989م، ص 67)

وأهم شيء كشفه سعيد هو تلك الرؤى والطرائق النصية التي استخدمت في مثل هذا النوع من الأدب في ترجمة الممارسات الثقافة الفرنسية وإعادة تثبيتها داخل العقول،لذلك كانت الكتابة في هذه النصوص " هي الترجمة المعقدة والمنظمة لعدد لا يحصى من القوى وتحويلها إلى نص قابل لحل طلاسمه ". (سعيد، 2000م، ص 157)

وفي هذه النقطة المعقدة ،يبرز إدوارد سعيد منطق دفاعه الحقيقي عن الثورة الجزائرية وذلك بتوجيه النقد اتجاه روايتين لكامو وهما الغريب والطاعون،لنطرح من خلال هذه النظرة التساؤل الآتي:

_ كيف فكك سعيد هاتين الروايتين؟

_ وكيف كشف عن المنطق المخاتل لكامو من خلال إتقانه للعبة الإستضمان والاندراج ؟

_ وإلى أي مدى ترجمت هذه الروايات الإمبريالية الفرنسية باعتبارها مركز قوي،والجزائر باعتبارها طرف إرهابي همجي؟.

إن كامو قد مثل العالمية بكل استحقاقاتها إذا ما تم النظر إليه من زاوية الأعمال الأدبية و الروائية والمسرحية التي قدمها،على غرار أقرانه الذين نافسوه في الثقافة الفرنسية الحديثة،ويغدو هذا الأمر مثيرا للاهتمام باعتبار فرنسا قد رصدت استعمار الجزائر من الأربعينات إلى غاية الستينات كما هو شائع، ذلك لأن النص الذي نحته كامو للجزائر كان يرنوا إلى عدم ظهور الجزائر ثقافيا وسياسيا و إيديولوجيا،وقد رأى سعيد في هذه الصورة المقدمة للجزائر أن كامو " استخدم الخطاب الثقافي للمدرسة الفرنسية التي أدت إلى العالمية و

الظرف الإنساني و مقاومة النازية والفاشية ،وكل ما إلى ذلك_كوسيلة لسد الطريق أمام ظهور لجزائر مستقلة ". (سعيد، 2008م، ص 135)

يظهر من خطاب سعيد أن كامو رغم حياته الجزائرية،(مولد_دراسته)،فإنه قد غادر هذا التسييج الأصلاني والمحلي الذي عاشه،وانخرط في لعبة لغوية،وسياسية رفيعة،رفع بها فرنسا إلى العالمية رغم أنها لم تتجاوز آنذاك حدودها الداخلية،على حساب الجزائر التي كانت ثورتها ومعاناتها الإنسانية تحاكيها الشاشات والسياسات و الثورات في إفريقيا و الكاريبي و المارتنيك وسائر البلدان المحتلة و المضطهدة.

على غرار هذا الوصف يظهر النص الإمبريالي عند كامو وبتعبير أكثر عنصرية وازدراء للجزائر ولشعبها،تظهر فرنسا دائما بصورة صاحبة اللحن و الخطاب،وصاحبة العصرية و الإيمان، ليظل نصها وخطابها مسيطرا على الجزائر،بالتالي تبقى فرنسا خارج الجزائر،لكن يستوجب وبلغة أكثر شرك ونفاق،أن تدخل الجزائر في فرنسا،وفي لحن فرنسا،وفي وطن فرنسا، لتظل الجزائر_ **فرنسا**_،دون أن تكون فرنسا _**الجزائر**_.

بهذا النمط يبتلع كامو نياته في مخاطبة الجزائر،ويتقيأ ثقافته الكولونيالية من خلال رواياته،ويظهر مدى تواطؤ السياسة الإمبريالية مع الآداب والثقافات،ومع المجتمعات و التواريخ و النصوص،حيث أن المشكلة الأساسية تتعلق بكيفية ارتباط هذه النصوص وهذه المجتمعات بالكولونيالية ارتباطا جذريا عضويا،يظهر في الآن مدى التلاحم العسير في الانتماء أو الولاء لأي حقل كولونيالي مهما كانت ظرفيته الأسلوبية والعملية،وقد أكد سعيد أن استيعاب مثل هذه النتاجات الأدبية يحيل ضرورة إلى إدراك التصور الذي " يعبر عن نفسه من خلال نمطية عرقية محددة الملامح سرعان ما يسيرون عليها نحو العنصرية ". (سعيد، 2006م، ص 175)

وإذا كان الأدب متحالف مع النشاط الإمبريالي،فما هي وجوهه الخفية في الأفكار و الدلالات؟

يجيب سعيد : أن الكلمة قد اكتسبت انطباعات مختلفة من الأحداث التي استعملت فيها،كما أن الكلمة قد أيقظت ألوانا شتى من الانطباعات في شتى الناس،ووفقا لهذه الكلمة و الإحساس،يجب النظر اللازم في أصول انتمائها وولائها،للأماكن التي استعملت فيها ،أو للأماكن التي استعمرت بها،يطرح بدوره التساؤل التالي: أليس أعظم من ذلك أن ننظر إلى الكلمة بجوانبها الثلاثة: الروح و الجسم و الحركة؟ (سعيد، 2006م، ص 223)

وفقا لهذه الرؤية الخاصة للدلالات،يناقش سعيد ألبير كامو،ويعيد صياغة وترجمة رواياته لمعرفة مدى التداخل الجدلي الذي تثيره في تصوير الواقع المحلي الجزائري،وإبداء السلطة الإمبريالية التي تتخفى وراء كلمات الغريب و الطاعون،وبين بنية الرواية و المسرحية من وجهة إمكاناتها النظرية و السياسة والطبقية في إحلالها مواقف إمبريالية منبثقة من المشروع الفرنسي لاحتلال العالم،حيث لا يقف راويها لا في هنا _**الجزائر**_،ولا في هناك **فرنسا** ،لتكون هذه الحال من أوصاف المحال الذي طرحها نسق كامو اللغوي،ليخرج سعيد عن هذا الحال والمحال ويؤكد أنه:" ما كان تاريخ الإمبريالية يكشف عن نموذج من الخطاب الثقافي الفصيح المقيد بالفخار القومي و النزعة الاستعبادية و المكيف وفقا لهما بغية إنقاذ مشيئة المرء في غير الأوروبيين، فإنه لابد أن يكون من الصحيح أيضا أن القومية المزيلة للاستعمار و القائمة على ردة الفعل بعيدة

كل البعد عن أن تكون وحدها ضمانة لعدم تكرار النموذج في الدول المستقلة الحديثة ". (سعيد، 2007م، ص 274)

الملاحظ لرواية الطاعون (La Peste) يعمد كامو إلى ذكر ريو فقط في أكثر من موضع ،دون أن نلتمس ذكر جزائري ولو واحد فقط باسمه،هذا ما يلوح إلى أن صورة الجزائري كإنسان معدومة تماما من الإنسانية الفرنسية التي رسختها مبادئ الثورة الفرنسية ،وبالتالي إعدام الوعي بالجزائر وذكر ريو (Rieux) وميشال(Michel) وبرنارد(Bernard) طوال امتداد الرواية،هو التذكير الروائي بالوعي الفرنسي لهذه الأسماء،وطبعا دون ذكر أي جزائري.(Camus, 1947, pp. 18,21)

أما في رواياته (**الغريب**) فقد أظهر كامو نفس الأسلوب الذي أظهره في رواياته السابقة،فلم يذكر أي جزائري أيضا ووصفهم طوال حكيه بالأعراب،في صورة إرهابية أو في صورة ثابتة ساكنة لا تعرف الحراك،ولكنه ذكر (**ماري) و(سيليست)،و(توماس بيريز)** صديق أمه في الملجأ،و في صور متحركة دائمة تعكس بالطبع الحراك الفرنسي في المناطق الجغرافية و اللغوية المحتلة،ويظهر ذاك السخف القضائي حينما يغتال صديقه شابا أعرابيا وتؤسس له محاكمة لمعاقبته،ليقنع الرأي العام و القراء على مدى استقامة القضاء الفرنسي،الذي لم يعاقب فرنسيا أو امبرياليا واحدا في قتله أبرياء الجزائـر. (كامو، 1982م، ص62،64)

ليس من غرض سعيد هو البحث عن أصلانية النص في كتابات كامو،لأن النص له استراتيجياته و أنماطه التشكيلية وهو كأداة يتموقع فيه التبرير أو التسويف في إخراج دلالاته المضمرة من شبكة الهيمنة التي تمارس عبره هيمنتها على الطبقة،حيث أن النص و التاريخ منسوجان ومدمجان كجزء من عملية واحدة،و الدراسات الثقافية تركز على أن أهمية الثقافة تأتي من تلك الحقيقة التي ترى أن الثقافة تعين على تشكيل وتنميط التاريخ والكتابة التاريخية (الغذامي، 2005م، ص17).

وقد تراى لإدوارد سعيد ومن هذا الموقع أن يتعقل في شروط انبثاق النص لكامو،ومدى تفاعل استراتيجياته التاريخية مع التاريخ الفرنسي و التجربة الكولونيالية في الجزائر،وقد أبدى في الطاعون المأساة التي حلت بالجزائر، وأظهر على أن العرب وجدوا ليموتوا سواء داخل الرواية أو خارجها،ولم يذكر اسم عربي واحد في مقابل أنه ذكر أسماء الفرنسيين،وعد سعيد هذا الأمر مثابة تورية أو حكاية مجازية بلغة استعارية تعكس طبيعة الاحتلال الألماني لفرنسا.وبرهنت على عدائه للثورة الجزائرية وقد قال في 1957م:" إن الاستقلال الوطني صيغة عاطفية،لم يسبق أن وجدت أمة جزائرية. (سعيد، 1989م، ص 67)

تبقى روايات الطاعون والغريب محتفظة بذلك النمط الذي لا يذكر أسماء العرب ضمن خطوطهما العريضة،وهو إشادة بتلك الخلفية الميتافيزيقية التي دشنتها الفلسفة الغربية أو الفكر الغربي في احتضان ما يسمى العدمية (Niant) الذي أعدم بها كل الناس،وامتنع عن ذكر أسمائهم من النصوص و الكتابات و التواريخ،بشرك ونفاق تام على عدم ذكر الجزائريين في مواقف الجزائرية. (سعيد، 1989،ص 90)

ماذا تخفي هذه التورية في باقي روايات كامو؟ هل تخفي تلاعب قلمه حينما يصل إلى قضية الجزائر؟أم أنه يزرع التناقض ليقبض على تلك الحرية التي حددت له معنى ما، صوب تقاليد وعادات تاريخية معينة،أو أحكام منطقية خاصة أسندت بنيته التفكيرية أن يتموقع في سياسة المُحال للإمبريالية الفرنسية ؟

وماذا يقدم القسم الواعي وغير الواعي لكتابات كامو؟

في روايته المنفى والملكوت يرى سعيد أن كامو شجع احتلال فرنسا للجزائر،من خلال عرضه لرحلة **(جانين)** التي كانت متزوجة برجل بائع جوال يدعى **(مارسيل)**،يذهبان في رحلة إلى جنوب الجزائر،وتقول جانين في القصة أن هذا البلد أي _ الجزائر_ هي بلدها،ولكن الناس الموجودين معها داخل الرواية وخارجها ،وطبعا،دون أن يذكر كامو أسمائهم،غرباء، لا تتكلم لغتهم ولا تجيد منطقهم،ولكنها في نفس الوقت تجيد ذلك الإشباع الجنسي الذي التهمته من خلال تمددها ليلا على التراب الجزائري؟ (سعيد، 1989م، ص 68)

يروي كامو هذا الموقف بقوله:" كانت السيارة ملئ بالأعراب الذين التفوا بعباءتهم،وراحوا يتظاهرون بالنوم العميق(....) شرعت جانين تضيق بهذا الصمت الذي يلفهم(...)وخيل إليها أنها قضت أياما طوالا، في سفر مع هؤلاء الرفاق من البكم". (كامو، (دت)، ص 14)

وفي موقع آخر حال تحقق الإشباع الجنسي لجانين وفرارها ليلا في أرض الجزائر العميقة يرد الوصف كالتالي: " قد أدركت مع تقدمها التدريجي،أساس وجودها،حيث يلتقي البرد و الشهوة، فيتباريان في التأثير عليهما(...)كانت جانين تفتح نفسها لليل(...)وبدأت تتنفس تنفسا عميقا وقد نسيت البرد(...)وبدا لها في الوقت نفسه أنها قد استعادت جذورها(...)بدأ ماء الليل،يملأ جانين،فيغرق بردها،وانبعثت من أحاسيسه الخفية،في مركز وجودها،انطلاقات متموجة من اللذة،موجة تتبع أخرى،متصاعدة إلى فمها الذي امتلأ بالتأوهات،وامتدت السماء في اللحظة التالية فوقها،إذ سقطت على ظهرها،فوق أديم الأرض الباردة. (كامو، (دت)، صفحة 36،37)

لقد كان وجود فرنسا في الجزائر استعاريا و زمانيا و ترندستاليا،سعت إلى تحقيق رغبة كولونيالية تشميلية،كونها لم تشفي غليلها من 1830م إلى الخمسينيات حيث انفجرت معارك تحرير الجزائر،ثقافيا،وحزبيا،وتنظيميا،و إقليميا،تحديا للمنطق التشميلي الفرنساوي الذي اعتبر الجزائر قطعة من فرنسا أو هي فرنسا،ويجب استردادها بالقوة،حيث أن هذه الأفعال كما يقول بول ريكور ستحول أنقاض البنى إلى شبكة متداخلة من العناصر الفاعلة تمتثل لفعل الذات ثم تتهرب منه في الوقت الذي تشاء،من ثم يعود الفاعل موضوعيا لا لأنه يغرق ويتلاشى في مثل هذا النوع من الفعل،ولكنه يتهرب فيما بعد وينفلت من ممارسة فعله،إذا وجد سياسة تحميه وتؤازره في مثل هذا الهروب.

ماذا تريد جانين من الجزائر بإشباعها الجنسي؟ وإلى ماذا كان يهدف كامو من خلال هذا التصوير؟ إن جانين هي فرنسا،ولطالما كان الإشباع الجنسي[*] وسيلة من وسائل الاحتلال الإمبريالي،وصورتها الغريزية الجنسية تحمل غرضا استثنائيا وهو اغتصاب الجزائر واستمداد الطاقة و الفاعلية منها كما يرى سعيد،إضافة أنها نوع من التشفير الإيديولوجي لاستمرار انتهاك ثروات الجزائر،والذهاب إلى أبعد نقطة في استمرار الإمبريالية الفرنسية عليها،ما يفسر النية التي تحملها فرنسا صوب مستقبل علاقاتها مع الجزائر في أبعد الرؤى و الإستراتيجيات الكولونيالية المتجددة.

وعن هذا النمط في الاستدعاء يقول سعيد:" لقد كانت فكرتي أن أكتب عن النص الفرنسي أو الأوروبي لا كموضوع يستمد امتيازه من أصل ابستيمولوجي و جغرافي،بل الكتابة عنه كواحد من جملة نصوص متنازعة ضمن مواجهة أعرض،حيث ينظر إلى ابن البلد و الغريب كنموذجين متساويين يرد أحدهما على الآخر(....)بل أحاول القول إننا لا نستطيع فهم الإمبريالية دون النظر إلى جهود هذين النمطين في علاقاتهما ببعضهما البعض،ودون فهم انعدام التكافؤ النسبي في مقدار القوة بينهما(وهي حالة انعدام التكافؤ التي صححها حزب التحرير واستقلال الجزائر1962". (سعيد، 1996م، ص 153)

نفس الشيء يلحظه سعيد على الكتابات الأنتربولوجية لبيير بورديو Pieere Bourdieu [*] الذي شغل حيزا كبيرا في الدراسات التطبيقية،و يكشف سعيد عدم تصريح بورديو بالورطة الاستعمارية في الأنتربولوجيا التي درسها و لا في ذكر الجزائر الذي يتسع مجال بحثه لذكرها حتما ، رغم أنه ذكرها في مواقع خارج هذا الحيز من النطاق. (سعيد، 1989م، صفحة 68)

كما يستدعي سعيد أنتربولوجية توكفيل التي سمحت لفرنسا وأعطت لها الضوء لأخضر في إهانة الجزائريين بقيادة الجنرال بيجو رغم أنه تحدث كثيرا عن القيم الإنسانية و المساواة والعدالة و الحرية،وقد انتقد أميركا انتقادا لاذعا نتيجة لإهانتها وتقتيلها و إبادتها للهنود الحمر و السود،ومع احتلال فرنسا الجزائر تناقضت آرائه و خطاباته وقدم تبريرا ذرائعيا للجرائم الفرنسية الذي كان من الأجدى أن يرشدها مثلما أرشد أميركا (سعيد، 2003، ص 107،108)

لقد كان وجود فرنسا في الجزائر استعاريا و زمانيا و ترندستاليا،سعت إلى تحقيق رغبة كولونيالية تشميلية،كونها لم تشفي غليلها من 1830م إلى الخمسينيات حيث انفجرت معارك تحرير الجزائر،ثقافيا،وحزبيا،وتنظيميا،و إقليميا،تحديا للمنطق التشميلي الفرنساوي الذي اعتبر الجزائر قطعة من

[*] وهنا يمكن أن نجد أن الموقف الأوروبي واحد في سياق هذا الإشباع الغرائزي لتعزيز سطوته،هذا ما بدى من خلال استغلال قصص الاغتصاب لدى الإدارة الكولونيالية البريطانية،في توطيد سلطتها فحسب بل لوصفها جزءا من المهمة الحضارية،حيث تتم معالجة الأزمات في السياسة البريطانية من خلال الترويج لاغتصاب أجساد النساء الإنجليزيات في مختلف الروايات ،هذا ما يشكل علامة في حدة الانتهاك التي تقوم به الكولونيالية.

[*] مثقف فرنسي مهتم بالإنتربولوجيا الميدانية،والخطاب وفكرة الرأسمال الرمزي،وقد درس المناطقية الجزائرية دون أن يكون في كتاباته ذكر الجزائر في المكان المناسب كما أشار إدوارد سعيد.

فرنسا أو هي فرنسا،ويجب استردادها بالقوة،حيث أن هذه الأفعال كما يقول بول ريكور ستحول أنقاض البنى إلى شبكة متداخلة من العناصر الفاعلة تمتثل لفعل الذات ثم تتهرب منه في الوقت الذي تشاء،من ثم يعود الفاعل موضوعيا لا لأنه يغرق ويتلاشى في مثل هذا النوع من الفعل،ولكنه يتهرب فيما بعد وينفلت من ممارسة فعله،إذا وجد سياسة تحميه وتؤازره في مثل هذا الهروب. (ريكور، 1999م، صفحة 26)

هذا ما يتوجب في مثل هذه الرؤى والقوالب من تفكيك الأطر والأسس التي بنت عليها الإمبريالية قصتها،تلك القصة التي أهدت للشعوب المحتلة،عذابها وموتها،جوعها وعراها،سجنها واضطهادها وإن تحتم الأمر وسمح بذلك طردها من زمانها ووجودها وسردها.

يتساءل سعيد في هذا الجانب ويقول: كيف ينشئ الناس حقائقهم ومعانيهم في هذا العالم الدنيوي باعتبار هذا الطرح يقدم إقصاءً كاملا للبقية؟

يجيب بنفسه : أن ضرورة الإتحاد الدنيوي لهؤلاء البقية من المضطهدين في العالم، يتم عبر دراسة نظام الخطاب الذي قسم العالم إلى أجزاء متناثرة قابلة للبيع و الشراء،حيث يديره وينهبه،ويضع إنسانيته على الرف،وهو الذي يحدد أنحن بشرا مثلهم أم لا،وليتبين من خطابه أن لغته وأسلوبه وروايته وقصته قد أدتا دورا هاما في العملية الإمبريالية،لذا يستوجب العملية التفكيكية لمجمل النصوص التي استند عليها تورطه ماضيا وحتى الآن،في لعبته الكولونيالية القذرة.بقذارة جانين و ميرسو،وبنفاق كامو ووقاحة توكفيل. (سعيد، 2008م، صفحة 26)

بغاية من الإيضاح،يفصل إدوارد سعيد مواقفه النقدية و الإبستيمولوجية انتصارا لقضايا التحرر ومن منطلق أكثر إنسانية،حيث شكلت الجزائر عنده مساحة متميزة إذا ما تتبعنا بدقة محطات كتاباته الشاملة عن الثقافة و الأدب و التاريخ والسياسة و الاجتماع،وذكرها وذكر تجاربها ،هو في حد ذاته نقدا وتجاوزا للكولونيالية الفرنسية،سواء كانت في ثوبها القديم أو في ثوبها المتجدد ذا التقاليد الحداثية السامية في صورها الإكراهية المتسلطة. لقد أفصح عن إعجابه بالأمير عبد القادر الجزائري،وقرأ لتاريخه وتاريخ منجزاته الرائعة،ونمط مقاومته في التحرير،وفي طريقته في مواجهة فرنسا على أنها أخذت الجزائر إلى ما تحقق في خمسينات الثقافة الإمبريالية.

ثانيا : في مجال السينما والدراما الكولونيالية:

لعبت الرواية الأوروبية دورا كبيرا في إعادة صياغة واقع الشعوب المستعمرة صياغة متذبذبة عن الوضع الحقيقي الذي عاشته هذه الشعوب، وقد ترافقت مع ذلك التنميط الموسع الذي دونته الكتابات،وصورته الشاشات المتواطئة مع الكولونيالية،خاصة الأدوار التي لعبتها السينما الفرنسية في شمال إفريقيا،وسوء نيتها في تنميط أوضاع هذه الشعوب واللعب بحقائقها، لقد شكلت العلاقة التبادلية بين السينما والواقع خاصة أثناء توسع الحروب ،واضطراب الأزمات السياسية و الاقتصادية ،دورا كبيرا في في صناعة الواقع ومحاكاته ،خاصة في ظل التوسع الإمبريالي في العالم و إعادة إخراج الواقع على حسب اللعب القومية الكبرى ،من هذا

المنطلق تبدو السينما مطالبة بالإجابة عن التساؤل التالي: ماذا فعلت السينما في إعادة محاكاتها للواقع؟ ماذا فعلت السينما لمل حورت الرواية الكولونيالية لخدمة أغراضها القومية؟ (زعبي، 2010م، صفحة 12)

وقد قال روى آرمز (**Roy Armes**) :" الأفلام التي صورتها _السينما الفرنسية_ في شمال إفريقيا،كان جذب جمهور المشاهدين و الدعم المالي لها عملية معقدة ،زادها تعقيدا الحاجة التي لا تقل عنها إلحاحا إلى الدعم الإداري،لقد قدمت السلطات الفرنسية في بلدان المغرب العربي هذا الدعم،لكنها تناقضت ثمن هذا الدعم تدخلا في محتوى الأفلام وتلاعبا برسالتها". (آرمز، 2008م، صفحة 20)

وضح إدوارد سعيد سيادة الذات الكولونيالية في مثل هذه الأفلام،ذلك أن الإيديولوجية القومية التي ميزت صورها الحبكية،جعل من الآخر المضطهد أن تظهره شاشتها بمظهر ضعيف ومشوه ومنمط داخل حقله الوطني أو خارجه،أما الأفلام العظيمة التي صورت حقيقة هذه الشعوب المأسورة في الإمبريالية " فستظل بمثابة الوثائق السينمائية العظيمة عن عصر الإمبراطورية،الذي يتواصل اليوم بأشكال عصرية،لكنها كلاسيكية في جوهرها." (سعيد، 2007م، صفحة 247)

فقد حضرت الثورة الجزائرية من خلال إعجابه بفيلم **(معركة الجزائر)**،وبكيفية تغطيته وتصويره و إخراجه،ولأجله سافر من مصر إلى روما لمقابلة مخرجه الإيطالي جيلو بونتيكورفو،حيث أن دور السينما الفرنسية آنذاك امتنعت عن عرضه،وفاز بأعلى الجوائز مع مخرجه في البندقية و أكابولكو.

ما هم سعيد في هذا الفيلم الطريقة التي أنجز بها والحركة التي درسها المخرج مع الممثلين و أدوارهم،لقد عرف بونتيكورفو أن يسرد الحياة الجزائرية ويعرض جانبا من معاناتهم،وأتقن لغة السرد السينمائي بطريقة جعلت من الجزائريين أن يتصدروا قضايا التحرر آنذاك وهو في ذلك يقول:" هو من نواحي عديدة الفيلم الأعظم في الستينات،ليس لأنه صور انتصارا حديثا مثيرا للثورة على واحدة من أقدم الإمبراطوريات وحسب،و إنما أيضا لأن روحه مفعمة بالتفاؤل الثوري الغني ،على الرغم من وجود العنف في القلب من هذا الفيلم ،فثوار جبهة التحرير الوطني يهزمون في الفيلم ،لكن الشعب الجزائري ينتفض ثانية ،بعد ثلاث سنوات من هزيمة الثوار في القصبة عام 1958م،و بونتيكورفو يسجل الانتصار اللاحق بروح غنائية خلاصية و سمفونية رائعة،في أبرز مشاهد الحشود أو المجاميع التي عرفتها السينما". (سعيد، 2007م، صفحة 167)

تمتد اللغة السعيدية إلى إظهار تلك المفارقة التي بينها فيلم معركة الجزائر للجنرال ماتيو وابن مهيدي من منطلق الأسبقية في منح الحاضر المتحرك صلاحيته في صناعته للدور الدرامي،حيث بلغت تصرفاتهما الجدية،قمة انتصار الفيلم ووضوح شخصية ماتيو،وانتصار بن مهيدي وعلي لابونتي في الصور السينمائية والواقعية.يشكل انتصارا انتصارا للمنطق الوطني على المنطق الكولونيالي.

إن هذا النظر في منطق الثقافة السعيدية في معالجة قضايا التحرر يفتح الحديث عن القضية الفلسطينية باعتبارها كبرى القضايا الدولية،وقد آثر سعيدا ن يسأل بونتيكورفو في أن يخرج فيلما مثلما معركة الجزائر للقضية الفلسطينية،انطلاقا من ذلك المشهد الذي أضافه بونتيكورفو في فيلم المعركة " أنا أؤيد

الفلسطينين"،غير أن بونتيكورفو أجابه بعدم إنجاز مثل هذا العمل خاصة وان حالات الانتصار في مثل هذه القضايا لا يزال مستحيلا. (سعيد، 2007م، صفحة 147)

بهذا المنطق الإنساني احتلت الثورة الجزائرية مكانا واسعا،وتجربة طليعية في العمل الثوري ذلك أن التأثيرات التاريخية القديمة و المعاصرة تشيع أحد الركائز النظرية والعملية التي تستند عليها مثل هذه القضايا،التي خاضت تجاربها النضالية من مبدأ الانتصار لهوية الإنسان و كرامته،الذي هو انتصار الوعي و العقلانية في العالم وقد أشار إدوارد سعيد لهذا الأمر بقوله: "علينا البدء بتحرير أنفسنا،بوعي وتصميم،من جملة مركبة من المواقف المرتبطة لا بالمركزية الأوروبية وحسب وإنما بمسألة الهوية أيضا ". (سعيد، 2005م، صفحة 70)

هكذا شرح سعيد منطق دفاعه ومساندته للثورة الجزائرية،حيث لم يبني هذا المنطق على أسس إيديولوجية فقط،وإنما كان لرؤيته التفكيكية والنقدية للنصوص و الأحداث و التواريخ دلالات عميقة في رصد معالم المنطق التحرري في كافة الاتجاهات،وإزاحة اللثام عن الحركات الثقافية للعمل الإمبريالي وصوره المتداخلة و المتشابكة،الذي تميز امتداده إلى الآداب و الرواية بحكم أن الإمبريالية الأوروبية توسعت في العالم بواسطتهما،ليكون منطق الدفاع السعيدي واضحا في جميع كتاباته تضامنا مع المضطهدين و المهمشين الحقيقيين في العالم.

من هذا المنطلق في الدراسة السعيدية للثورة الجزائرية نستنتج ما يلي:

- شرح سعيد منطق دفاعه ومساندته للثورة الجزائرية من خلال تفكيك خطاب الامبريالية الثقافي،حيث لم يبني هذا المنطق على أسس إيديولوجية فقط،وإنما كان لرؤيته التفكيكية والنقدية للنصوص و الأحداث و التواريخ دلالات عميقة في رصد معالم المنطق التحرري في كافة الاتجاهات.
- إزاحة اللثام عن الحركات الثقافية للعمل الإمبريالي وصوره المتداخلة و المتشابكة،
- تميز مشروعه الثقافي النقدي إلى امتداده في حقول الآداب و الرواية بحكم أن الإمبريالية الأوروبية توسعت في العالم بواسطتهما،ليكون منطق الدفاع السعيدي واضحا في جميع كتاباته تضامنا مع المضطهدين و المهمشين الحقيقيين في العالم ويرد الإمبراطورية بالكتابة.

خاتمة:

_ قد آلت الرؤية السعيدية في تضامنها مع الثورة الجزائرية إلى ذلك الانفتاح الواسع لفكر سعيد الذي احتضن الآداب و السياسات و الدراما بالشكل الذي انتقض بها كل نشاط كولونيالي أراد أن يعزز وجوده بروايات الإمبراطورية الشائعة.

_قد فضح إدوارد تواطؤ كامو على الثورة الجزائرية في رواياته الشهيرة،وكشف منطقه المخاتل الذي أجادته اللعبة اللغوية و السردية ،حيث غدا السرد الإمبريالي موقفا حازما اتجاه تصويب اللحظة الإمبريالية في إخراج مساحات الجزائر وشعبها خارج التاريخ و الجغرافيا،وحتى داخل الرواية ذاتها.

_ أدت السينما دورا كبيرا في إخراج صور الشعوب المحتلة إلى تقبل وظائف السياسة الكولونيالية ،وقد فطن إدوارد إلى هذا الموقع لاعتباره نشاطا مهما يعززه التحليل النفسي في رسم وتوجيه محتوى الوقائع المصورة للمنطقة والشخص والموضوع ،الذي أصبح في الشاشات الكولونيالية من أقوى الدعائم في تغيير تاريخانية الشعوب،وفي مقابل وفي هذا الأمر يقول مرزاق علواش :" عندما يتحدث الناس عن هذه السينما الكولونيالية لا ندري ما الذي تعنيه،نحن نعرف أن مخرجين مهمين قد أتوا لإخراج أفلامهم في الجزائر،وأن جميع أنواع الأفلام وجدت،من أكثرها عنصرية إلى أكثرها إسهابا وتسلطا أبويا ". (آرمز، 2008م، صفحة 22)

_ كما كانت سينما التحرر تتدفق سيولاتها في قاعات السينما وعلى الشاشات الكبرى،وكان لبونتيكورفو أن خلق صدى واسعا في رواياته معركة الجزائر كرد فعل اتجاه المنتجات السينمائية الغربية الكولونيالية،ليظل منطق المقاومة متواصلا جيلا بعد جيل ضد استمرار الثقافة الإمبريالية كما شرحها إدوارد سعيد.

_المراجع :

1. ألبير كامو. (1982م). الغريب (دط). بيروت، لبنان: المكتبة الثقافية.
2. ألبير كامو. (دت). المنفى و الملكوت (دط). (ترجمة: خيري حماد) بيروت، لبنان: متشورات دار مكتبة الحياة.
3. آنيا لومبا. (2013). الكولونيالية ومابعدها (ط 1). (، ترجمة :باسل مسالمة) دمشق، سوريا: دار التكوين.
4. إدوارد سعيد. (2006م). الاستشراق(المفاهيم الغربية للشرق) ،ط01، ترجمة: محمد عناني، القاهرة: دار رؤية للنشر و التوزيع.
5. إدوارد سعيد. (2003م). الآلهة تفشل دائما. دمشق: دار التكوين.
6. إدوارد سعيد. (2005م). الأنسنية و النقد الديمقراطي (الإصدار 01). (فواز الطرابلسي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الآداب.
7. إدوارد سعيد. (2008م). السلطة والسياسة والثقافة ،ط01، (ترجمة: نائلة قلقيلي، دمشق، سويا: دار الآداب.
8. إدوارد سعيد. (2000م). العالم و النص والناقد ،(دط). (ترجمة: عبد الكريم محفوظ، دمشق: منشورات إتحاد الكتاب العرب.
9. إدوارد سعيد. (1989م). القلم والسيف (الإصدار 01). (ترجمة: توفيق الأسدي، دمشق، سوريا: كنعان للدراسات والنشر.
10. إدوارد سعيد. (2007م). تأملات حول المنفى (ط02). ترجمة: ثائر ديب ،بيروت، لبنان: دار الآداب.
11. إدوارد سعيد. (2007م). تأملات حول المنفى (ط02، المجلد 01). (ثائر ديب، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الآداب.
12. إدوارد سعيد. (1996م). تعقيبات على الاستشراق (ط01). ترجمة: صبحي حديدي، بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والتشر.
13. إدوارد سعيد. (2003م). لآلهة تفشل دائما (دط). (، ترجمة : حسام الدين خضور) دمشق، سوريا: دار التكوين.
14. بول ريكور. (1999م). الوجود والزمان و السرد (ط01). (، ترجمة : سعيد الغانمي،) بيروت،الدار البيضاء، لبنان،المغرب: المركز الثقافي العربي.
15. روبنسون دوغلاس. (2009م). الترجمة والإمبراطورية (ط2). دمشق، سوريا: دار قدمس.
16. روى آرمز. (2008م). صور مابعد الكولونيالية(دراسات في أفلام شمال إفريقيا (ط1). ترجمة: سهام عبد السلام، القاهرة، مصر: المركزالقومي للترجمة.
17. ريما المسمار و أحمد زعبي. (2010م). الإرهاب و السينما (جدلية العلاقة و إمكانات التوظيف) (ط01). بيروت، لبنان: مدارك للنشر والترجمة والتعريب.

18. عبد الله الغذامي:. (2005م). النقد الثقافي (ط03). بيروت،الدار البيضاء، لبنان،المغرب: المركز الثقافي العربي.

_المراجع بالأجنبية:

19.Camu amus, A. (1947). La Pest. Paris, France: Librairie Gallimard.